سورةُ القارعةِ مقاربة تداولية مدمجة

أ.م.د.عمار نعمة نغيمش
جامعة القادسية / كلية التربية

Surah Al-Qari'ah Integrated Pragmatic Approach

Dr. Ammar Na'ama Naghmesh
Al-Qadisiyah University / College of Education

الملخّص

يدرسُ هذا البحثُ منجزاً لغوياً في سورة القارعة يمزج بين التّداولية والدلالة، فعلى الرغم من قصر هذه السورة إنّها تحمل تمثلات لغوية سياقية ابتداء بالتنغيم الذي اتضح من مشاهد السورة وصولاً إلى الاكتناز الدلالي الحاصل فيها، فالمتواليات التي جاءت ؛ لتثير القارئ إلى ما يحصل في يوم القيامة، فالسورة بكمالها تشير إلى المستقبل.

Abstract:

This research studies a linguistic achievement in Surat Al-Qari'a that mixes pragmatics and semantics. Despite the shortness of this surah, it bears contextual linguistic representations starting with the intonation that became clear from the scenes to the semantic compactness that occurs in this surah. The sequences that came excites the reader about what will happen on the Day of Resurrection, as the entire surah refers to the future.

المقدمة:

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد، فقد عرف القسم المكي في القرآن الكريم بالتركيز على العقيدة وتثبيتها، وذكر أهوال القيامة فقسّم الناس على مؤمن وكافر، فجاءت هذه السورة لتؤكد ذلك، إذ يجد القارئ أنّ ثمة مهيمنات لغوية واضحة تركزت في هذه السورة ممّا يجعل المختص يبحث فيها، فعنون البحث بـ(سورة القارعة مقاربة تداولية مدمجة).

انتظم البحث في تمهيد تكلمت فيه عن التداولية المدمجة، و درست مجموعة من المباحث، ابتدأتها بالتنغيم السلميّ، فالفعل الكلامي غير المباشر، والاكتناز الدلالي، وآخرها المتوالية اللسانية. وأرجو أن أكون قد وفقّت في هذه الدراسة.

مدخل نظري: التَّداولية المدمجة المقولة والإجراء.

اشتهر هذا المصطلح في أعمال ديكرو، وأنسكومبر، لذلك سميت بتداولية ديكرو، وأنسكومبر، أو الحجاجية اللسانية[١]؛ لأنّها جمعت بين التّداولية والحجاج، أو لأنّها عالجت الحجاج بمنظور تداولي، إذ أقحم ديكرو الحجاج في التّداولية، فالحجاج – برمته- حجاج بالمضامين الدلالية بشروطه تلفظية[٢].

وسميت أيضاً بالتّداولية المدمجة، وهو المصطلح الأشهر، لأنّه سعى إلى الدمج بين التداولية والوصف الدلالي أو الدمج بين المكوّن النحوي، والمكوّن البلاغي الدلالي[٣].

وقد سمّاها صولة – بحسب ترجمته للتسمية عند ديكرو- بالتداولية اللسانية، أو التداولية الدلالية[٤].

وقد شكّلت منطلقات أعمال ديكرو وأنسكومبر – بعد ما انتهت إليه نظرية أفعال الكلام – مرتكزاً للحديث عن النشاط التلفّظي، ومن ضمنه الحجاج بوصفه فعلاً يقوم به المتكلم فتنعكس آثاره واضحة في الملفوظ الذي ينتجه هذا النشاط[٥].

ذلك أنّ توجيه الحجاجيات اللسانية مثل: القوة الحجاجية، أو التوجه الحجاجي، والقصد، والمقدمات المضمرة وغيرها هي مفاهيم لا يمكن الاستغناء عنها- في أثناء وصف الملفوظات – فقادتهما إلى تأسيس ما يسمى بالتّداولية المدمجة، وهي اتجاه يرى "أن التداولية يجب ادماجها في الوصف الدلالي، وليست فقط إضافتها اليه كما يمكن ادماج الظواهر التداولية في صميم الدراسة اللسانية، فالرهان الأساس حسبهما هو إسناد الدلالة إلى الجمل، إذ يتمّ اسناد دلالة كل جملة بشكل يسمح بتوقع الملفوظ في سياق محدّد"[٦].

فقاما بتقديم فرضيات للتداولية المدمجة، وقسماها على خارجية وداخلية، فالأولى تتمثّل في أنّ المتكلمين في لغة معينة يمتلكون القدرة على منح معنى للملفوظات المنجزة بوساطة هذه اللغة، والبحث عن إمكانات تأويل الملفوظات في الاستعمالات المتعدّدة[٧].

أمّا الثانية، فهي تبرز الطبيعة العلمية النظرية لعملية إسناد الدلالة إلى الجمل، فالجملة ليست هي الملفوظ لأنّها ذات طبيعة نظرية مجردة، أي: أنّها تنتمي إلى اللغة الواصفة، ولكنَّ الملفوظ له وجود في حياة الناس اليومية[٨].

لقد قدّم ديكرو خدمات جليلة للدراسات اللسانية، إذ استطاع بلورة مشروعه القائم على التداولية المدمجة في الدلالة تلك التي تهتمّ بالخصائص الحجاجية للملفوظات أكثر ممّا تبحث في شروط صدقها، فلم يوافق على ما جاءت به نظرية التواصل بحسب ما قدّمت من شانون، و ويقر، فليست الغاية من كل تواصل تقتصر على نقل الخبر من باث إلى متلق.

ومن ثم أكد على أنّ اللغة مصاغة للفعل، وليست توصيلاً للمعلومات فحسب، وأنّها تقوم على علاقات إنسانية تفرض على المستعملين أشكالا قليلة للتواصل، وهي تتكون من نسيج صعب من المكونات الخطابية ذات الإمكانات المتنوعة.

لذلك نُظر إلى المنظور الخطي للاجتراحات السابقة آنذاك[٩].

إذ رُفض التّصور القائم على فصل الدلالة التي تبحث في المعنى من جهة، والتداولية من جهة أخرى[١٠].

المبحث الاول: التّنغيم السُّلميّ:

قرينة سياقية تستعمل في الدلالة على المعاني الإضافية مثل: التأكيد، والانفعال، والغضب، بلحاظ التنوّع الحاصل في درجات الأداء، فتنغيم الكلام المنطوق له أثر دلالي في تفسير الجمل تفسيراً صحيحاً[١١].

وقد ورد – في السورة الكريمة – بأوجه متعدّدة، أولها: التنغيم المتدرج صعوداً، فابتدأت السورة الكريمة بكلمة {الْقَارِعَة}(١) المفاجئة، وكأنَّ شيئاً سيأتي ذكره ممّا تجعل المتلقي ينتظر ما يأتي من كلام، فافتتحت بتلك الكلمة المخيفة بما فيها من تشويق، وتهويل لما سيأتي أو إلى معرفة ما سيخبر به[١٢].

ذلك أنَّ المحور هو القارعة هنا، فعدّت وحدة بنائية أو مرتكزاً ينفتح النص عليها، فهي أول ما يقرع السمع لأنَّ الكلمة المبتدأ بها دالّة على ما بعدها[١٣].

وثمة وقفة أدائية في الكلام، وهي وقفة داخلية أو سكتة معلقة، ويرمز لها – في الدرس الحديث- بـ(- أو) ويكون دليلاً على أنّ الكلام لمّا يتمّ بعد، فالقارئ ينتظر الآتي، وتصاحبه نغمة صاعدة إشعاراً لما بعده وتعلّقه به، إذ يقع في التركيب الذي ينظم طرفين، فيكون وحدة متكاملة[١٤].

والوقفة ذات مغزى إشاري له قيم تعبيرية كبرى في السياق تعمل على إبراز الدلالات الموجودة في الخطاب[١٥].

فالابتداء الموجز يوحي إلى المقابل بالتأمّل، ليفكّر بما يأتي من كلام، وليتدبّره، فزيد في الكلام، فقال جل وعز: {مَا الْقَارِعَة}(٢)، فالتنغيم كان منخفضاً، فالكلمة الأولى مهّدت بطريقة أخرى إلى السؤال الضمني فجاءت بعدها الآية الكريمة، فأصبح هنا متوسطاً وهو أعلى من سابقه، لذلك قيل: إنّها استفهام فيه معنى التعظيم والتعجيب، وليس إنكارياً، فاللفظ الأول إذا كرّر فإنّه يدلّ على التعظيم والتفخيم[١٦].

وقد ارتفع التنغيم في قوله تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ} (٣)، فهو هنا صاعد، وهو أقوى أداء ممّا سبق بلحاظ التهويل لأمرها وشأنها، فالسياق القرآني هيّأ ذهن المتلقي بثلاث آيات لما سياتي من الوعيد، وهذا الصعود يدلّ على إقرار فعل أو إنجاز فعل.

ويُذكر - في البحث اللغوي – أنّ هناك مقدمات ووقائع حجاجية، فلا يمكن أن تثبت الجملة ما لم تكن مقدمتها ووقائعها معلومة عند كل المستمعين، أي: عند كل الجمهور، ومن شروط هذه المقدمات أن تكون معلومة عند كل الناس، فإن قامت الحجة فلا ينكرها أحد بعدما تسلّموا الوقائع[١٧].

إذ بدأ التّهديد بعدها في الآيات، أو بدأ بإبلاغ الحجة ابتداء من الآية التي جاءت بعدها.

وفي النّص الكريم تنغيمان آخران، وهما الصاعد، والهابط، فالجزء الأول كان صاعداً أمّا الثاني؛ فهابط وهذا ما تبيّن في أمّا وجوابها، قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَة}(٦).

فالجزء الأول – من النصين الكريمين – ينتهي بتنغيم عال، أمّا الثاني؛ فينتهي بهابط، ويشير إلى تمام الكلام والمعنى، فثمة تعلق بين الجمل، فالكلام الأول كان مرتفعا ينتظر الجواب ولا يتم إلّا بالتنغيم الهابط الذي يحيل القارئ إلى التفكر والتدبّر.

والملاحظ – في النّصين- أنّ ثمة سكتة خفيفة بين الجزئين، وهذه السكتة توحي للمتلقّي بما سيأتي من كلام فالجزء الأول بقي فيه الكلام معلقاً بلحاظ التنغيم الصاعد، وتمّ الكلام في الجزء الثاني بانخفاض التنغيم والجملة هنا خبرية، فهي شيء متحقق، والكلام نفسه يقال في قوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَة}(٨) وقد ورد تنغيم آخر فيه صعود ونزول، قال تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ}(١٠)، فهو هنا تأكيد وتخويف ومن ثّم هبط في نهاية السورة في قوله تعالى: {نَارٌ حَامِيَة}(١١)، أي: النتيجة نار حامية،

ولذلك جاءت الجملة هنا خبرية لتؤكّد ذلك، وهذا الهبوط في الأداء يشير إلى النهاية الحتمية المتحصّلة للكافر، فيجعل القارئ منتبها لهذا الهبوط في الأداء الذي يتبعه الأثر المترتّب للوقوع في النّار الحامية.

المبحث الثاني: الفعل الكلامي غير مباشر:

يراد بالفعل الكلامي الإنجاز الذي يُلفظ بملفوظات معيّنة من منظومة الأفعال النطقية التي لا ينظر إليها على أنّها دلالات أو مضامين لغوية بل هي إنجازات، وأغراض تواصلية، كي تصنع أفعالا ومواقف، لتؤثر في المخاطب بحمله على إنجاز فعل، أو تركه، وغيرها[١٨].

وهو على قسمين، مباشر وغير مباشر، وسيكون الكلام عن النّوع الثاني، وهو خطاب لغوي تلميحي يعبّر به المنشئ عن الغرض بخلاف معنى الخطاب العرفي، فيتجاوز المعنى الحرفي لخطابه، بمعية عناصر السياق، فالمنشئ أو المتكلم يستطيع أن يبلّغ المتلقي أكثر ممّا يقوله بالفعل بإسناده إلى معلومات خلفية لغوية أو غير لغوية مشتركة بينهما، وبإسناده الى مقدرات المتلقّي العقلية[١٩].

ومن أهمّ أنواعه ما يسمّى بالإلزاميات، أو التّعهدات، أو الوعود، وغيرها[٢٠].

وهذا النوع يتعهّد فيه المنشئ بإنجاز فعل في المستقبل، ويكون في المواعيد، والتّهديد، وغيرها[٢١].

والحقّ أنّ السورة بكمالها تشير إلى ذلك ابتداء من بدايتها بالقارعة، فهي كلمة واحدة، وتعني الشديدة من شدائد الدهر، وسميت بهذا الاسم لأنّها تقرع الناس، أي: تضربهم بشدة[٢٢].

وذكر بعضهم أنّها القيامة، والساعة، وذلك أنّها تقرع الخلائق بأهوالها، وإفزاعها[٢٣]

ويُستنتج من النص الكريم أنّ هناك يوماً – في المستقبل- يقرع القلوب بالأهوال، فهذه الكلمة الواحدة أدخلها معناها المعجمي في الترهيب، والتخويف، وزاد في ذلك قوله تعالى: {يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ} (٤) {وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ}(٥) فهو فعل كلامي يشير إلى المستقبل، فعتبة العنوان لها أثر في التداول.

إذ بدأت السورة بالتعظيم والتعجيب في النص، ثم التّهديد والوعيد، وبعد ذلك قدّم النص القرآني وصفا في (فأمّا من ثقلت موازينه....) وهذا الوصف يراد منه فعل كلامي غير مباشر، (شيء مضمر) أي : أثقلوا موازينكم.

وكذلك الوصف (بأمّه هاوية)، فهو وعيد، ويشير إلى (شيء مضمر)، وهو الهلاك والمكوث في جهنم، ومعلوم أنّ الوعيد، والتهديد يكثر في السور المكية، ومنها هذه السورة، لأنّ المكيّ يركّز على تثبيت العقيدة فلا بد أن يُستعمل فعل كلامي فيه وعيد، والهدف من ذلك إقناع المقابل بذلك اليوم المخيف.

المبحث الثالث: الاكتناز الدلالي:

وهو ما يمثّل اختزال الجملة او اللفظ، فهو ضغط للعبارة بما يمكن من اللفظ، فيتحصّل منها المعنى بالإيحاء والرمز، والمجاز، وهو مصطلح بديل عن الايجاز او الاقتصاد اللغوي، وغيرهما، فتتركّز المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة كي تنتج الدلالة وصولاً إلى الإقناع.

ويظهر ذلك في الأساليب البيانية، لأنّها تتعلّق بإيصال الكلام وإحالته من الحقيقة إلى المدلول المجازي، فتنحصر الألفاظ في صور بلاغية[٢٤].

وفي النص الكريم مجموعة من الأساليب ورد الاكتناز فيها، وهي الآتي:

١. التشبيه المجمل المرسل:

يستدعي التشبيه طرفين، هما المشبه والمشبه به، وأعلى الأنواع و أقواها البليغ، ثم المجمل[٢٥].

والكلام هنا عن المجمل المرسل، إذ ذكرت فيه الأداة وحذف وجه التشبيه، قال تعالى: {يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ} {وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ}.

ووجه الشبه هنا محذوف يتأملّه القارئ

من السياق، وهو الكثرة، والانتشار، والتطاير من كل جانب، وهنا حصل الاكتناز من الفضاء الدلالي لهذا الحذف الذي يجعل المتلقّي يتصوّر ذلك التصوير المخيف بما في النّص من حجة بالسلطة التي هي أقوى الحجج، فكل حذف يحوّل القرينة من لفظية إلى معنوية، فالأصل أن يذكر وجه الشبه، وحذفه نوع من أنواع التطوّر، والأخير يحيل إلى الاكتناز، فاللغة الأكثر تطوراً تميل إلى الاكتناز؛ فالتّشبيه يجمع ثلاث صفات، هي: المبالغة، والبيان، والإيجاز[٢٦].

ولابدّ من الذهاب إلى الدلالة القرآنية للفظة الفراش، فقيل: إنّها الحشرة المعروفة، ومنهم من رجح أنّها صغار الجراد، وقيل: هي الحشرة التي تطير وتتهافت على النار، وذكر الفراء أنّه طائر يشبه صغار الجراد الذي يركب بعضه بعضاً[٢٧].

أمّا أبو عبيدة؛ فيذهب إلى أنّه طير ليس ببعوض ولا ذباب[٢٨].

وقريب ممّا ذكر ما ذهب إليه الزجاج إلى أنّه يشبه صغار البق الذي يتهافت على النّار[٢٩].

واضح أنّ هذه التوجيهات تتراوح بين هذه الحشرة الصغيرة، والفراش المعروف.

إذ أعطاها النص الكريم بعدا تصويرياً أياً كان هو، فهو تصوير فيه بثّ، واختلال واضطراب.

ويبدو أنّه الحشرة التي تتهافت على النار فتحترق، فالعرب تصف هذه الحشرة بالجهل، والطيش، ولذلك قيل في المثل: هو أطيش من فراشة[٣٠].

وقد استعمل القرآن هنا تشبيه صورة بصورة، والهدف من ذلك هو الإقناع الذي يدفع إلى التدبّر.

٢. التعدد الدلالي في (أمه هاوية).

كثرت الآراء الدلالية التي قيلت في (أمّه هاوية) من قوله تعالى: {فأمّا من خفّت موازينه فأمّه هاوية}، وأشهر هذه الآراء وأكثرها هو التشبيه البليغ، وهو ما حذفت منه الأداة ووجه الشبه، وهو أعلى مراتب التشبيه في البلاغة، وقوة المبالغة؛ لما فيه من ادعاء أنّ المشبه هو عين المشبه به، ولما فيه من الإيجاز الناشئ عن حذف الأداة ووجه الشبه معاً[٣١]، أي: مسكنه النّار؛ وإنّما قيل لمسكنه أمّه؛ لأنّ الأصل السكون إلى الأمهات

فالنار حالها حال الأم، فلا مأوى له غيرها، ومن ثم قيل للمأوى: أم على التشبيه، فهي مأوى الولد ومفزعه ومسكنه، كما قيل للأرض: أم الناس، لأنّها تُؤويهم[٣٢].

فالجملة كانت متكوّنة من أربعة عناصر، فاكتنزت إلى اثنين أصبحا مثل الشيء الواحد.

واضح أنّ النظر هنا إلى التشبيه البليغ يعطي معنى بلاغياً أوسع، أي: أنّ النص القرآني نص عربي من الطراز الأول، وأسلوبه ونظمه يقتضيان الاتساع، وفتح الدلالة.

والرأي الآخر على أنّها مثل أو استعارة تمثيلية، ولاشك أنّ الاستعارة تنقل العبارة من وضع استعمالها إلى غيره لغرض، نحو: شرح معنى، أو المبالغة فيه، أو لاختصار العبارة، وغيره[٣٣].

فهي تعطي كثيراً من المعاني باليسير من اللفظ[٣٤].

ومن ثم قيل إنّها قياس مختزل حذفت مقدمتاه، واكتفي بالنتيجة[٣٥].

أمّا الاستعارة التمثيلية؛ فهي ما كان المستعار فيها مركّباً، فتكون في التركيب (المبتدأ والخبر)، وهي ضرب من التمثيل، قال الرازيّ: "وقد خصّوا التمثيل المنتزع من اجتماع أمور يتقيّد البعض بالبعض باسم التمثيل، فقد يكون ذلك على حدّ الاستعارة، كقولهم لمن يتردّد في الأمر: أراك تقدّم رجلاً وتؤخّر أخرى، والأصل: أراك في تردّدك كمن يقدّم رجلاً ويؤخّر أخرى"[٣٦].

وهنا لا يقصد بها الأم، بل إنّ النتيجة هو المصير إلى النار، فإذا كانت مثلاً يكثر فيها استعمالها في الأمثال – وهي تركيب لغوي يحلّ المشبه ويبقى المشبه به- فإنّها تجري مجرى المثل، ومن ثم ذكر اللغويون أنّها كلمة عربية تستعمل أو تقال للرجل إن وقع في أمر شديد أو إذا دعي عليه بالهلكة، فيقال:

هوت أمه لأنّه إذا هوى فقد سقط حاله حال الذي يفقد أمّه ثكلاً وحزناً[٣٧].

وقد قيل إنّ هذه الكلمة كناية، والمعروف عن الكناية أنّ المتكلم يريد إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له باللغة، ولكنه يأتي إلى معنى هو تاليه، فيوحي إليه ويجعله دليلا عليه[٣٨]، أي: أنّها تعني أنّه يهوي – إلى النار- على رأسه منكوساً[٣٩].

والواقع أنّ هذا التوجيه جاء لأنّ ثمة مكاناً عميقاً أو لازماً عميقاً، فهو سقوط في قعر أو مكان عميق، فيسقط منكوساً على رأسه، واللازم هنا الهاوية، وهي المكان العميق، فيكون على حذف المضاف – أم الرأس أو وسطه – فهي كناية عن حال الهوي على رأسه أو كناية عن الانحدار والسقوط في جهنم، وفيه - أيضاً – معنى الشمول، فتنال أم رأسه، فأقدامه، فلما جعلت بمعنى أم الرأس فقد حملت على البيان.

وربما يقال: إنّ فيها مجازاً عقلياً على أنّ الهاوية من أسماء النار، أي: مهوي فيها، إذ نُظر إلى السياق فثّمة عدول صرفي من اسم المفعول إلى اسم الفاعل للانسجام مع السياق الذي يحافظ على الفاصلة القرآنية فالكلمة في نهاية الآية وردت بصيغة فاعل، وإن كان هذا الوجه بعيداً.

ويمكن أن يقال: إنّ فيها مجازاً مرسلاً، وهو الكلمة المستعملة قصداً في غير معناها الأصلي لعلاقة غير المشابهة مع قرينة مانعة عن إرادة المعنى الأصلي[٤٠]، فقد ذكر الكل وأُريد بذلك الجزء، فأشرف شيء بالإنسان هو رأسه، فهو يدلّ على الكرامة والشهامة وغيرها، فهذه المنظومة القيمية قد سقطت، واختُزلت وعّبر عنها بالرأس.

والآراء التي ذكرت جاء ت (عدا المثل) من النظر إلى الملازم أو القرينة (الهاوية)؛ مّما أنتج صورة بيانية مكتنزة، وإن كان التعدّد هنا يتراوح بين التشبيه البليغ والمثل.

أمّا من حملها على المثل؛ فإنّ استدعاءها مجاز من حيث الدلالة، فهو حقيقي في بنيته، ومجازي في استعماله، فحاله حال: ويل أمّه ولأمّه الهبل، فهي من باب الدعاء على الشخص، فالملفوظ الاستعاري هنا يدلّ على الذمّ أو الويل أو شدة الأمر وتفاقمه، فحمل الكلام على المعنى الحقيقي؛ لأنّ الأصل أن يحمل النص على ظاهرة، فيراد معناه، ولا يقاس على واقعه ممّا لاءم السياق من دون تأويل، وقد وجد ما يؤيده (كلام عربي).

٣. راضية بين المجاز العقلي والفاعلية.

وردت كلمة راضية في النص الكريم، قال تعالى: {فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ} (٧).

وقيل: إنّ فيها مجازاً عقلياً، وهو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى ملابس له غير ما هو له لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقي[٤١].

وهذا يعني أنّها أسندت إلى المفعول، أي: أن يجعل ما هو له في المعنى مفعول فاعلاً، فإنّ راضية مسندة إلى ضمير المعيشة، فقد جعلت العيشة فاعلاً، وإنّما هي مفعول في المعنى، فهي مرضي بها[٤٢].

فالمعنى القرآني استدعي ذلك؛ لأنّ الله يخاطب العباد بالآية لتضيف معنى أخروياً، أو هذا المعنى الأخروي مرضي عنه من المخاطب (الإنسان) على الحقيقة، وعلى الواقع المتصل بالله فهو راضٍ، فالله عبّر عن المراد بما يتصل بالبشر، فوصفها على أنّها راضية؛ لأنّه يخاطب البشر، وأراد مرضية؛ لأنّه متصل بالذي سيكون فأضمر حتى دلالة اللفظ بهذا المجاز، فالذي يرضى صاحب العيشة، وليست العيشة، فأصل التعبير: عيشة راضٍ صاحبها، فأسند الرضا إلى العيشة لملابسة الرضا لها من جهة وقوعه عليها، وهي هنا شخّصت وأنزلت من المنزلة المجردة إلى المرئية المحسوسة، وهنا حصل التطابق الوجودي بين المجرد الذي شُخِّص وأُنزِل من المنزلة المجردة (الأقل افهاما) والمرئي المحسوس، فعندما أنزلت إلى مرئية مساوية إلى مرتبة الإنسان أصبحت أكثر افهاماً، فأيّ فعل مجازي هو فعل إفهامي بلحاظ إنزال ما هو بمرتبة وجودية إلى مرتبة وجودية أدنى، فكلما أصبح الشيء قريباً على وجود الإنسان أصبح أكثر وضوحاً لذلك لا يمكن أن يؤدي التعبير (فهو راضٍ عن عيشته) ما يؤديه (فهو

في عيشة راضية)، فالإسناد تحوّل إلى كل إجزاء الجنة فاكتنزت الدلالة بهذا التعبير لتدلّ على كل أجزاء الرضا.

والرأي الثاني أن تؤخذ على الفاعلية، أي: فاعلة للرضا، وهو اللين والانقياد لأهلها، فالفعل للعيشة؛ لأنّها أعطت الرضا من نفسها، وهو اللين والانقياد، فالعيشة كلمة تجمع النّعم التي في الجنة، فهي فاعلة للرضا[٤٣].

وهنا تحصل المقابلة الدلالية في هذا الملفوظ بين عيشة راضية (الترغيب)، وأمّه هاوية (إن حملت على الذمّ وغيره)، فهي هنا تعامل على أنّها شخص متحرّك (أيضاً مجسّد)، فهنا ترغيب في بثّ الحياة، فهي أبلغ من المرضية، وكأنّ القرآن يبثّ فيها الحياة بلحاظ الذم السابق أو أن يكون في قعر جهنم، فقد بثّ الحياة في العيشة، فأعطاها الفاعلية (فعل متحرّك: مجسّد).

أمّا المرضية؛ فالفعل يقع عليها، في حين أنّها -هنا- هي التي تبثّ الحياة، وهي التي تُصور، وهنالك مُصورَة، وهنا تُصوِر، فحصل الاكتناز ايضاً، وهو أكثر من الاكتناز الحاصل في مرضية بما فيه من ترغيب المعنى والاتساع فيه، و بما في التاء اللاحقة في راضية من مبالغة وبثّ للحياة[٤٤].

المبحث الرابع: المتوالية اللسانية.

نجد في النص الكريم جملا مؤلّفة تأليفا طبيعيا، فليس فيها عدول وتغيير تكون بين سبب ونتيجة، أو حجّة وحجّة أو حجّة ونتيجة، وبينهما رابط حجاجي، فألّفت متواليات لسانية، والملاحظ أنّ هذه الحجج المتوالية مرتبطة بنتيجة رئيسة، وهي القارعة، أي: ربط الجزئيات بالكليات، وهي الآتي:

قال تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ}، فالواو هنا رابط حجاجي، وهو مكوّن لغوي يربط بين قولين أو أكثر داخلين في استراتيجية حجاجية واحدة، فتربط بين المتغيرات بين حجة ونتيجة، أو مجموعة من الحجج[٤٥]

فالواو -هنا- تحتمل الاستئناف أو العطف، والأول يعني أنّك تستأنف كلاما بناء على قاعدة أو حقيقة راسخة فهي نتيجة، فما بعدها غير متعلّق بما قبلها[٤٦].

أمّا العطف؛ فيعني أنَّ ثمة تواصلاً أو تأكيداً لكلام سابق، أي: ربطت بين القولين، فهي تفيد الإشراك، وتدلّ على مطلق الجمع، وأنَّ الثاني بعد الأول ولا مهلة بينهما[٤٧].

فالواو تعمل على تقوية هذه الحجج المذكورة وتماسكها بها فيها من علاقة التتابع والترابط في الحجج، فهي ربطت بين حجج متساوقة {الْقَارِعَة} {مَا الْقَارِعَة} {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَة}، فأسهمت في بناء مكوّنات هذا الخطاب، والذي يغري أن تكون عاطفة أنَّ المشهد الأول من السورة مترابط؛ فتأتي النتائج بعده، يزاد على أنّها جاءت بعد جملة إنشائية، فهي تربط بين جملتين إنشائيتين، فالآية الأولى خبرية، أمّا الثانية والثالثة فهما إنشائيتان فصلت بينهما الواو، فوحدة الأسلوب في النص ترجّح العطف بما فيه من انسجام في الجزئيات وربطه بالنتيجة الرئيسة.

والكلام نفسه يقال في الآيتين الآخرتين، فهما نتيجة جزئية للقارعة، فالقارعة حجّة، قال تعالى: {يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوث وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوش}، فهما مثل الوصف للقارعة، وفي الآية الأولى نتيجة، وهي وصف الناس وحالهم المتخلخل، والواو هنا أيضاً عاطفة، فثمة تساند حجاجي بينهما، وهنا أيضاً النتيجة مضمرة، وهي وصف دمار هذه الجبال وتسويتها وصولاً إلى التخلخل في هذا اليوم العظيم.

والملاحظ على الآيتين الأخرتين أنّهما تحملان توازياً تركيبياً، فقد تكونتا من حجّة ونتيجة يربط بينهما رابط، قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ} فـ(رابط) {فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ} (نتيجة).

{وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ} فـ(رابط) {أُمّه هاوية} (نتيجة).

والمعروف عن أمّا أنّها موضوعة لمعنيين لتفضيل مجمل، واستلزام شيء لشيء، أي: أنّ ما بعدها شيء يلزمه حكم من الاحكام، لذلك قيل فيها معنى

الشرط، فهو استلزام الشيء للشيء، والاستلزام لازم لها في جميع مواقع استعمالاتها[٤٨]، والاستلزام هنا نتيجة.

ولها وظيفة التأكيد أيضاً، نقول: زيد ذاهب، فإذا قصدت أنّه لا محالة ذاهب، وأنّه على عزم الذهاب قلت: أمّا زيد فذاهب[٤٩].

والفاء -في أمّا- رابط يفيد الاستئناف والتفريغ لما هو آت.

واضح أنّ ما ذكرته الآيتان هو مشهد تفصيل وتفريع لما سبق وتوكيد للآتي فقد صورتا حال الإنسان إمّا أن تكون نتيجته هانئة أو عيشته خاسرة.

ويبدو أنّ قوله تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ} أيضاً نتيجة للتحليل السابق، أو خلاصة للنتيجة السابقة في (هاوية)، وتعطي أيضاً نتيجة أخرى، وهي {نار حامية}، فقد توالت نتيجتان لنتيجة سابقة.

واضح أنّ النتائج المذكورة في المتن الكريم حتمية، فكلها متحقّقة في المستقبل.

حصيلة الدراسة:

فيما يأتي مجموعة من النتائج تبيّنت في البحث:

١- هيّأ السياق القرآني ذهن المتلقّي في بداية النص بصعود التنغيم في الآيات الثلاث الأولى، فدلّ فيه على التّخويف والتّهويل، والهدف من ذلك هو الإقرار، لذلك بدأ السياق القرآني بعدها بالتهديد في الآيات الأخرى، وهذا يعني أنّ النص مقسّم على تهويل وتخويف وإقرار، ثمّ الوصف الحاصل في الناس، والجبال وصولاً إلى تقسيمهم على سعيد وشقيّ.

٢- استعمل الخطاب القرآني قيماً مادية، وهو ما يسمّى بالحجاج بالشاهد أو بالمثل، إذ ذكر شاهداً حسياً (مرئياً)، مثل: الفراش المبثوث، والعهن المنفوش، فهذا الشاهد يدركه الإنسان، فله صورة في ذهنه وإذا ما ذكر به فإنّه يستحضره، ولم يستعمل قيماً أخرى تدرك بالعقل.

٣- يمكن القول إنّ السورة بكمالها تشير إلى فعل كلامي غير مباشر، فالسورة فيها جزئيات مضمرة، ذلك أنّ دلالتها في المستقبل وفيها ما فيها من التّهويل، والتّهديد، والوعيد، فرؤية النص في المستقبل،

٤- اتضح أنّ السورة - وإن كانت دلالاتها مكتنزة- فإنّها محمولة على الاتساع، وهذا الاتساع يتحسسه القارئ الواعي، ممّا يجعل أكثر الموّجهين يذكرون وجوهاً متعدّدة لما هو مستقرّ في النص، ومن ذلك ما قيل عن أمّه هاوية بلحاظ الملفوظ (هاوية)، فجاءت الأوجه الدلالية بما في هذا الملفوظ من اتساع، فمن قال: إنّها مثل لاحظ معنى الهاوية، وأخذ بمعنى الدعاء عليه بالمصير إلى النار والهلاك (نتيجة الحجة)، ومن أخذ بمعنى التشبيه البليغ، فعلى أنّها المستقرّ في النار، وكذلك من ذهب إلى الكناية بلحاظ الوقوع في هذا القعر على رأسه، فمدار السورة الكريمة قائم على أمّه هاوية، فالخطاب موجّه إلى الكافر والميؤوس منه، وهذا يعني أنّها مشهد من مشاهد القيامة، وهو ما يفسر لنا التّركيز على التّشبيه البليغ عند أغلبهم في توجيهات

فهي نتيجة لحجة متسلسلة، أعقبتها نتيجتان تابعتان لها (وما أدراك ما هي، ونار حامية).

٥- تألفت السورة من ترابط نتائج جزئية بنتيجة رئيسة، فكل آية تخدم تلك النتيجة (القارعة)، لذلك تساوقت الحجج والنتائج لخدمة مطلع السورة، يزاد على أنّ هذه النتائج المرسومة في النص محتومة فاستعملت بأسلوب السلطة العليا التي هي أقوى الحجج، فهي تضمر أشياء متحققة في المستقبل.

الهوامش:

١- ينظر: الأداء الصوتي للمسكوكات القرآنية، د. مشتاق عباس: ٢٠.

٢- ينظر: البعد التداولي في الحجاج اللساني، د. بنعيسى ازابيط ٢٣٨/٢

٣- يراجع: القاموس الموضوعي للتداولية، جاك موشلر ورفيقه: ٦٥.

٤- ينظر: الحجاج في القرآن: ٣٥.

٥- يراجع: الحجاجيات اللسانية عند انسكومبر و ديكرو، رشيد الراضيّ: ٢١٧.

٦- الحوار ومنهجية التفكير النقدي، حسن الباهيّ: ١٣٣.

٧- ينظر الحجاجيات اللسانية: ٢٢٣-٢٢٥.

٨- نفسه.

٩- يراجع: التداولية اصولها واتجاهاتها : ١٣٢/١٣١.

١٠- يلاحظ على سبيل المثال: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، شكري المبخوت: ٣٥١-٣٥٤.

١١- ينظر: دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر: ٢٣٠.

١٢- هذا ما ذكره صاحب التحرير والتنوير: ٥٠٩/٣٠.

١٣- يراجع العمدة، القيروانيّ: ٢١٦/١.

١٤- ينظر علم الاصوات، كمال بشر: ٥٥-٥٦٠.

١٥- يراجع: تجليات الدلالة الايحائية، فوزية غريب: ١٥٧-١٥٨.

١٦- يراجع الخصائص: ٥٤/٣.

١٧- يلاحظ ما ذكره صاحب نظرية الحجاج عند شابيم بيرلمان: ٤٤.

١٨- ينظر: التداولية، مسعود صحراوي: ١٠-١١.

١٩- الافعال الإنجازية في العربية المعاصرة، د. علي محمود: ١٢٥.

٢٠- يشاهد على سبيل المثال: العقل واللغة والمجتمع، سيرل: ٢١٨.

٢١- يراجع: اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، المتوكل: ٢٥.

٢٢- مقاييس اللغة: ٢٢/٥.

٢٣- يراجع: الجامع لأحكام القرآن: ٤٤٢/٢٢.

٢٤- وهو ما ذكره ابن الاثير في المثل السائر: ٢٦/١.

٢٥- ينظر: المصباح، ابن الناظم: ١٢١.

٢٦- يراجع المثل السائر: ١٢٢/٢.

٢٧- ينظر: معاني القران: ٢٨٦/٣.

٢٨- يشاهد ما ذكره في مجاز القرآن: ١٠١/٢.

٢٩- ذكره في معاني القرآن: ٧١/٥.

٣٠- مجمع الامثال، الميدانيّ: ٤٣٨/١.

٣١- ينظر: اسرار البلاغة: ٢٥١، والبلاغة العربية في ثوبها الجديد: ٤٠/٢.

٣٢- يراجع على سبيل المثال، الكشاف: ٤٢٢/٦-٤٢٣.

٣٣- كتاب الصناعتين، العسكريّ: ٢٦٨.

٣٤- يلاحظ ما ذكر في أسرار البلاغة: ٤٣.

٣٥- ينظر: المجاز والحجاج: ٢٣-٢٤.

٣٦- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: ٨١.

٣٧- ينظر: مقاييس اللغة: ١٥/٦.

٣٨- ينظر: دلائل الاعجاز: ٦٦

٣٩- يلاحظ: تفسير القرطبيّ: ٤٤٦/٢٢.

٤٠- ينظر: المجاز وقوانين اللغة: ٢٣٢.

٤١- الايضاح في علوم البلاغة، القزوينيّ: ٢٧/١.

٤٢- يراجع عروس الافراح: ١٤١/١.

٤٣- ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٤٤٥/٢٢.

٤٤- يراجع، شرح المفصل: ١٧٣/٥.

٤٥- يراجع: نظرية الحجاج في اللغة: ٣٧٥، واللغة والحجاج: ٣٣.

٤٦- ينظر: الجنى الداني، المراديّ: ١٦٣.

٤٧- يراجع: كتاب سيبويه: ٢١٦/٤، وحروف المعاني: ٣٦.

٤٨- يلاحظ ما ذكره الرضيّ في شرحه: ٤٦٦/٤-٤٦٧.

٤٩- ينظر: البرهان الزملكانيّ: ١٩٥/٢.

المصادر والمراجع:

١- الأداء الصوتي للمسكوكات القرآنية مقاربة تداولية مدمجة في ضوء علم الدلالة، د. مشتاق عباس معن دار الفراهيديّ للنشر والتوزيع، ط١، العراق، ٢٠١٣م.

٢- أسرار البلاغة، الجرجانيّ (ت٤٧١هـ)، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدنيّ، ط٤،مصر ١٩٩١م.

٣- الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة دراسة دلالية ومعجم سياقي، د. علي محمود الصراف، مكتبة الآداب، ط١، القاهرة، ٢٠١٤م.

٤- أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو الى اليوم، إشراف حمادي حمود، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، ط١، تونس، د.ت.

٥- الإيضاح في علوم البلاغة، القزوينيّ (ت٧٣٩هـ)، شرح أ. محمد عبد المنعم خفاجي، دار إحياء الكتب العربية، ط١، القاهرة، ١٩٥٣م.

٦- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، الزملكانيّ (ت٦٥١هـ) تح: د. خديجة الحديثيّ ورفيقها، مطبعة العانيّ ط١، ١٩٧٤.

٧- تجليات الدلالة الايحائية في الخطاب القرآني، د. فخرية غريب عبدالقادر، عالم الكتب الحديث، ط١ الاردن، ٢٠١١م.

٨- التّداولية أصولها واتجاهاتها، جواد ختام، كنوز المعرفة، ط١، عمّان، ٢٠١٦م.

٩- التّداولية عند علماء العرب، د. مسعود صحراوي، دار الطليعة، ط١، بيروت، ٢٠٠٥م.

١٠- تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، د. ط، تونس، ١٩٨٤م.

١١- الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ (ت٦٧١هـ)، تح: د. عبدالله بن عبد الحسن تركي ورفيقه، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، لبنان، ٢٠٠٦م.

١٢- الجنى الداني في حروف المعاني، المراديّ (ت٧٤٩هـ) تح: فخر الدين قباوة ورفيقه، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٢م.

١٣- الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبدالله صولة، دار الفارابيّ، ط١، بيروت ٢٠٠١م.

١٤- الحجاج مفهومه ومجالاته دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، اشراف: د. حافظ اسماعيل علوي ج٢، عالم الكتب الحديث، ط١، اربد، الاردن، ٢٠١٠م.

١٥- حروف المعاني، الزجاجيّ(ت٣٤٠هـ)، تح: علي توفيق الحمد، دار الأمل، ط٢، الاردن، ١٩٨٦م.

١٦- الحوار ومنهجية التفكير النقدي، حسن الباهيّ، افريقيا الشرق، ط١، المغرب، ٢٠٤٤م.

١٧- الخصائص، ابن جني (ت ٣٩٢هـ) تح: محمد علي النجار ط٢، دار الكتب المصرية، مصر، ١٩٥٢م

١٨- دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط٤، القاهرة، ٢٠٠٦م.

١٩- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبيّ (ت٧٥٦هـ)، تح: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، د.ت.

٢٠- دلائل الاعجاز، الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجيّ، ط٥، القاهرة، ٢٠٠٤م.

٢١- شرح الرضيّ على الكافية، الأستراباذيّ (ت٦٨٦هـ) تح: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قاريونس ط٢، ليبيا، ١٩٩٨م.

٢٢- شرح المفصل، ابن يعيش (ت٦٤٦هـ)، تح: د. إبراهيم محمد عبدالله، دار سعد الدين، ط١، دمشق، ٢٠١٣م.

٢٣- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، السّبكيّ، (ت٧٧٣هـ)، تح: د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، ط١، بيروت، ٢٠٠٣م.

٢٤- علم الأصوات، كمال بشر، دار غريب، د. ط، مصر، ٢٠٠٠م.

٢٥- العقل واللغة والمجتمع: الفلسفة في العلم الواقعي، جون سيرل، ترجمة سعيد الغانميّ، منشورات الاختلاف، ط، الجزائر، ٢٠٠٦م.

٢٦- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، القيروانيّ، (ت٤٥٦هـ)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد دار الجيل، ط٤، ١٩٧٢م.

٢٧- القاموس الموسوعي للتداولية: جاك موشلر

ورفيقه، المركز الوطني للترجمة، ط١، تونس، ٢٠١٠م.
٢٨- كتاب سيبويه (ت١٨٠هـ)، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجيّ، ط٣، القاهرة، ١٩٨٨م.
٢٩- كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكريّ (ت بعد ٣٩٥هـ) تح: محمد علي البجاويّ ورفيقه، د. ط، بيروت المكتبة العصرية، ١٩٨٦م.
٣٠- الكشاف عن خصائص غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشريّ (ت٥٣٨هـ)، تح: عادل احمد عبد الموجود ورفيقه / مكتبة العبيكان، ط١، الرياض ١٩٩٨م.
٣١- اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، أحمد المتوكل، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط٢، بيروت، لبنان ٢٠١٠.
٣٢- اللغة والحجاج، أبو بكر العزاويّ، العمدة، ط١، الدار البيضاء، ٢٠٠٦م.
٣٣- المثل السائر في أدب الكتاب والشاعر، ابن الاثير (ت ٦٣٧هـ) تح: محمد محيي الدين عبدالحميد المكتبة العصرية للطباعة والنشر، د. ط، مصر، د.ت.
٣٤- مجاز القرآن، ابو عبيده (ت٢١٠هـ)، علق عليه: محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجيّ، مصر، ١٩٥٤م.
٣٥- المجاز والحجاج في درس الفلسفة بين الكلمة والصورة، د. شوقي المصطفى، دار الثقافة، ط١، المغرب، ٢٠٠٥م.
٣٦- المجاز وقوانين اللغة، علي محمد سلمان، دار الهادي، ط١، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م.
٣٧- مجمع الأمثال، الميدانيّ (ت٥١٨هـ)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار السنّة المحمدية، ط١، مصر، ١٩٥٥م.
٣٨- المصباح في المعاني والبيان والبديع، ابن الناظم (ت٦٨٦هـ)، تح: حسني عبد الجليل يوسف، مكتبة الآداب، مصر، د.ت.
٣٩- مقاييس اللغة، ابن فارس (ت ٣٨٥هـ)، تح: عبد السلام هارون، اتحاد كتاب العرب، د. ط، سوريا ٢٠٠٢م.
٤٠- معاني القرآن، الفراء (ت ٢٠٧هـ)، تح: عبد الفتاح إسماعيل شلبي، الهيأة المصرية العامة للكتاب، ط٢، مصر، ١٩٨٠م.
٤١- معاني القرآن وإعرابه، الزجاج (ت ٣١١هـ)، تح: د. عبد الجليل عبده شلبي، دار الحديث، د. ط، القاهرة، ٢٠٠٤م.
٤٢- نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، د. الحسين بنو هاشم، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، بيروت، لبنان، ٢٠١٤ م.
٤٣- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، الرازيّ (ت ٦٠٦هـ) مطبعة الآداب، د. ط، القاهرة، ١٣٧١هـ.

المجلات:

١- الحجاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو، د. رشيد الراضيّ، عالم الفكر، ع1، مج : 4-3، الكويت 2005م